من أعلام التربية
إسماعيل القباني
١٨٩٨ ـ ١٩٦٣

د. محمود قمبر
استاذ أصول التربية بجامعة قطر

١ـ مذاهب وأعلام

ولد إسماعيل القبانى بإحدى قرى محافظة أسيوط بصعيد مصر فى عام ١٨٩٨م، أى بعد مضى ربع قرن على وفاة الطهطاوى (ت/ ١٨٧٣م) أول رائد مصرى فى تحديث الفكر والتربية والنهضة العربية [١] كما جاء مولده بخمس سنوات بعد وفاة على مبارك (ت/ ١٨٩٣م) وزير المعارف الذى نهض بهندسة التعليم على أسس إصلاحية حديثة[٢] وعايش فى طفولته وشبابه أعلاما بارزين لهم شهرتهم المدوية فى عالم التربية مثل الشيخ محمد عبده (ت/ ١٩٠٥م) والشيخ محمد رشيد رضا (ت/ ١٩٣٥م) [٣] واطلع على برامج الأحزاب السياسية بإيديولوجياتها المتصارعة والتى تنوعت فيما بينها من أقصى اليمين الى أقصى اليسار: إسلامية أصولية محافظة، وإسلامية توفيقية أو مجددة، وليبرالية معتدلة، وقومية عربية، وراديكالية علمانية، واشتراكية ثورية، وقد جعلت كلها التعليم فى مقدمة اهتماماتها الوطنية [٤] خصوصا وأن سلطات الاحتلال البريطانى لمصر (١٨٨٢م) قد أقرت سياسة تقتير وتضييق خوفا من انتشار التعليم واثارة وعى المصريين للمقاومة والتحرير [٥].

وكانت لهذه الإيديولوجيات منابر سياسية وأدوات دعائية عملت على رواج صحافة بلغت جرائدها فى عام ١٩٤٨م ما مجموعه ٣٥٣ صحيفة ومجلة رسمية وأهلية محررة باللغة العربية، غير ١٠٢ صحيفة ومجلة محررة بلغات أجنبية [٦] وقد خصص معظمها مقالات وأبوابا تربوية ثابتة تتصل بالفكر والفلسفة، بالتنظيم والتخطيط، بالتدريس والممارسة [٧].

كما تعرف القبانى فى مراحل دراسته وباحتكاكه مع زملائه الدراسين بالمدارس الأجنبية على رسالاتها التربوية المتباينة، وكانت تمثل فى مصر بيئاتها الغربية وتنشر قيما ثقافية وأساليب حياتية وأفكارا جديدة دار حولها جدل كبير فى أوساط السياسيين

والمثقفين[٨].

وكان القبانى كذلك على دراية بجهود وأفكار كبار المربين الأجانب الذين أقاموا بمصر وعملوا بها كالسويسرى دور بك الذى أنشأ جهاز التفتيش التعليمى، وكالأرمنى يعقوب أرتين الذى نظم التعليم بصفته وكيلا لوزارة المعارف قبيل الاحتلال البريطانى.

كما شارك القبانى عددا من الأساتذة الأجانب الذين وفدوا الى مصر لدراسة مشكلات التعليم وطرق تحديثه كالسويسرى كلاباريد الأستاذ بمعهد روسو بجنيف، والانجليزى إف ـ أو ـ مان المفتش بوزارة المعارف البريطانية، وقد أقاما بمصر عاما كاملا (١٩٢٩٩م) وقدما تقريرين منفصلين، وكذلك الإنجليزى مارفن خبير التعليم الأولى الذى وفد الى مصر فى عام ١٩٣١م.

من كل هؤلاء ومن غيرهم ـ كما سنوضح فيما بعد ـ تعلم القبانى دروسا مفيدة، لكنه تميز عنهم بسمات خاصة جعلته رائدا تربويا من طراز فريد.

٢ـ القبانى أو جون ديوى المصرى

إن المفكرين ورواد النهضة الوطنية فى مصر، وإن وقفوا على أرضية التربية فى واقعها المؤزم، جمعتهم روح الإصلاح وإرادة التحديث، الا انهم تأثروا بفلسفات مختلفة: طبيعية روسو الرومانسية، ومثالية كانت، ووضعية كونت، وأمبريقية لوك، وعقلانية اسبنسر، وتطورية دارون، وقد ترجمت الى العربية أهم الكتب التى تناولت هذه الفلسفات وتأثيراتها التربوية[٩] كما ان هؤلاء المصلحين الذين كتبوا عن التربية فى نظرياتها أو اهتموا بنقدها وتحديث نظمها، لم يكونوا فى معظمهم مربين بالتخصص، وإنما تحركوا فى هذا المجال بدوافع مختلفة سياسية وتمدينية ودينية[١٠] وان اشتغل بعضهم بالتدريس لبعض الوقت أو أشرفوا على جمعيات خيرية عنيت بإنشاء المدارس ونشر التعليم[١١].

أما القبانى فقد كان أول رائد تربوى متخصص، تميز بشمول التكوين العلمى فى حقل التربية نظريا وعمليا، وجمع فى شخصه كفاءة البيداجوجى وخبرة السيكلوجى[١٢] فقد درس بمدرسة المعلمين العليا العلوم التربوية والنفسية ودرب طلابها على فنيات التدريس، وذلك بعد سنوات من العمل مدرسا بالتعليم الثانوى

أظهر فيها تفوقا مهنيا ملحوظا. وذاعت شهرته كمجدد تربوى على مستوى الفكر والعمل، خصوصا بعد عودته من لندن وقد كان موفدا إليها فى بعثة دراسية ١٩١٨/١٧م، والتقى بها أثناء إقامته بأساتذة البراجماتية الإنجليز الذين نشروا نظريات ومبادىء جون ديوى وطبقوها فى مدارسهم الجديدة، كما اطلع على كتبه ذائعة الصيت وآمن بكل ما جاء فيها.

ونظرا لما كان يتمتع به من صفات وقدرات: نبوغ فذ لازمه طوال سنوات الدراسة والعمل [١٣] وسعة ثقافته التى تجمع بين القديم والحديث، وقدرة فائقة على العرض والإقناع، وجهد دءوب لا يكل وعزيمة قوية لا تلين، فقد اعترف به التربويون زعيما لحركة التربية التقدمية فى مصر.

ومع ذلك، ودون أن نحط من قيمة القبانى، فإننا نصرح بأنه لم يكن فيلسوفا مبدعا، او منظرا جديدا للبراجماتية، استطاع أن يضيف اليها فكرا تأصيليا أو غير مسبوق، فقد كانت فى الواقع فلسفة ناضجة مستوية.. وانما الذى رفع من شأن القبانى وخلد ذكره كرائد تربوى كبير، انه تفرد ومهر كاستراتيجى ملهم يعرف تماما كيف يوظف البراجماتية بروح مصرية أو عربية، وكيف يدير آليات تطبيقها بنجاح عملى منقطع النظير. وساعده على ذلك انه تقلد وظائف كبيرة أمدته بسلطتين: علمية وتنفيذية، مما سهل له تحقيق مشروعاته الإصلاحية والتى كرس لها حياته العريضة، وجعل منها قضية وجوده المهنى والسياسى والإنسانى [١٤].

٣ـ مبادىء البراجماتية وأساليبها التطبيقية فى مصر

قبل ظهور المفهوم العلمى لأهداف التربية وفنية تحديدها إجرائيا بالشكل الذى يحكم منهجيا تخطيط التربية وتصميم برامجها وممارسة أساليب تعليمها وتقويم عوائدها[١٥] ، كان القبانى كغيره من التربويين يركز على «سياسة وأساليب التعليم» باعتبار ان التعليم يقوم بوظائف تقليدية تعرفها المدارس فى الغرب والشرق على السواء، منها:

— تعليم المعارف والمهارات والقيم لتكوين شخصية المتعلم وتطبيعه اجتماعيا.

— نقل التراث الثقافى وتجديده، بما يؤدى إلى تواصل الأجيال ماضيا وحاضرا.

— إعداد القوى العاملة فى المجتمع لسد حاجات التنمية والتقدم.

وكانت أهم المبادىء التى تحدد اطار السياسة التعليمية للقبانى تنحصر فيما يأتى:

— تعميم التعليم الأولى وجعله إلزاميا ومجانيا وموحدا، اذ لا يعقل أن توجد ثمانية أنواع مؤسسية لهذا التعليم تختلف فى نوعيات تلاميذها، وكفاءات معلميها، وسنوات الدراسة بها، وبرامجها وأساليبها وأهدافها، مما أدى بالتعليم الى تخريب الطابع القومى والتجانس الثقافى وتكريس الطبقية والتمايزات الاجتماعية. (١٦)

— أطالة أجل الإلزام لتكوين قاعدة ثقافية عامة ومهارات وظيفية لكافة المتعلمين، نظرا لأن عددا كبيرا من أبناء الشعب وبالذات ممن تضمهم المدارس الإلزامية والأولية وهى مدارس غير موصلة الى ولا مفتوحة على التعليم العام فى مراحله العليا، يتركونها شبه أميين إلى حرف آبائهم أو إلى الفراغ والتعطل مما يسبب كارثة قومية وتبديدا لثروة الأمة البشرية.

— تنويع التعليم الثانوى، بحيث توجه أغلبية التلاميذ بعد مرحلة التعليم الإلزامى بقسميه الابتدائى والإعدادى إلى مدارس فنية (زراعية ـ صناعية ـ تجارية) ولا يلتحق بالمدرسة الثانوية الاكاديمية الا القلة من أصحاب القدرات العقلية المتميزة، ففى هذا التوجيه رعاية للمواهب وللميول، ورعاية لمتطلبات التنمية وسوق العمل.

— الارتفاع بمستويات إعداد المعلمين فى معاهد تربوية متنوعة لتخريج أعداد كافية من المعلمين المؤهلين فى كافة المجالات العلمية والعملية والفنية والرياضية. وتنظيم برامج تدريبية فى أثناء الخدمة لترقية وتجديد كفاءاتهم، إذ أن فعالية التعليم مرتبطة تماما بفعالية المعلم.

— إعداد المناهج الجديدة وربطها بشئون الحياة العملية والبيئية، ومراعاة تكاملها فى إطار الخطة الدراسية الشاملة للجوانب العلمية واللغوية واليدوية والفنيةوالدينية والصحية والرياضية والاجتماعية.

— تصميم معمارى مناسب للمدارس، وتزويدها بكل مايلزم لجعلها بيئات صالحة لممارسة كافة الأنشطة التربوية من ألعاب رياضية، وأشغال يدوية، وفنون

تشكيلية، وعروض مسرحية، وأعمال بستانية، وهوايات علمية وأدبية.

أما عن الأساليب التعليمية فهى منقولة حرفيا من براجماتية ديوى، ومن أبرزها:

— جعل المدرسة بيئة إنسانية نشطة، تتفاعل داخلها الطبيعة والمجتمع، ولا تنعزل عنهما.

— معاملة الطفل كشخص تتمركز حوله التربية، وتتحول إلى مسلكيات نمو تراعى ميوله وتشبع حاجاته وتمشى مع قدراته.

— التعلم من خلال خبرات مربية تضع الطفل فى مواقف أمبريقية وأمام مشكلات حقيقة تشحذ دافعيته لفهمها وحلها بشكل إيجابى مناسب.

— استخدام طريقة المشروع التى تدعم مبدأ «التعلم بالعمل» وتحول البيئة المحيطة إلى فصل دراسى واسع، وتقوى ملكات الملاحظة والإدراك والتحليل والتقويم. وهذه الطريقة تتعاكس تماما مع الطريقة التقليدية التى تقوم على تنظيم المواد الدراسية كأشياء تم صنعها سلفا ولا صلة لها بخبرات وميول المتعلم، ولا تستدعى غير أسلوب: اقرأ واكتب واسمع واحفظ مما تعرفه ثقافة الذاكرة السلبية الخامدة.

— تنمية روح الحرية، والديمقراطية التشاركية، والإدارة الذاتية، والاحترام المتبادل بين الصغار، والتدريب على تقديم المبادرات وتحمل المسئوليات.

— تأصيل دور جديد للمعلم يجعل منه صديقا للصغار، ومخططا لمواقف التعلم، وموجها إلى مصادر المعرفة، ومصححا لأخطاء اكتسابها، ورائدا تربويا فى المدرسة والمجتمع المحلى.

وأخيرا فإن القبانى فى سن متأخرة وقد جاوز الخمسين وأصبح وزيرا مسئولا فى عهد الثورة العسكرية (٢٣/ ٧/ ١٩٥٢) وعاملا لنصرة مبادئها وتحقيق أهدافها فى الوحدة والحرية والاشتراكية، قد وضع أهدافا رئيسية لتربية عربية، من أهمها:

— التربية لتعزيز النمو الشخصى والاجتماعى تبعا لحالة كل طفل..

— التربية لتعزيز قدرات ذكائية خاصة بالفكر النقدى، والتعليل الاستدلالى، والتصور الخلاق.

— التربية لتعزيز خبرات ومهارات العمل والإنتاج، تتكيف مع حاجات الاقتصاد، وغير مقصورة على مجال الوظائف الحكومية.

— التربية لتعزيز روح المواطنة المستنيرة والقومية العربية الأصيلة.[١٧]

٤ـ مؤسسة الإصلاح

لكى تتحول تلك الأهداف والمبادىء من مستوى الفكر أو النظرية إلى مستوى التنظيم والتطبيق كان لابد من جهد كبير اضطلع به القبانى ومعاونوه لتجسيد حركة التربية التقدمية فى بنيات مؤسسية وبرامج تعليمية وهيئات فنية وسياسات تشريعية وتنفيذية. وفى هذا المجال نجح القبانى بشكل منقطع النظير، مع أنه واجه على أرض العمل مقاومات وصراعات، وأحيط فى كثير من الأحوال بظروف حرجة مادية وفنيا، اضطرته أن يخوض معركة الاصلاح بعزيمة المناضل الذى لا يعرف الكلل أو الإحباط، والذى لا يقعده النقد أو التجريح. ومن جهوده ومشروعاته فى هذا المجال:

١ـ إنشاء معهد التربية للمعلمين:

تعددت من قبل مدارس إعداد المعلمين فى مراحل التعليم المختلفة، ولم يكن لها نظام ثابت ولا قواعد ضابطة ترقى بمستويات إعدادهم العلمى والتربوى [١٨] مما أثار شكوى الخبراء والمسئولين الناقدين لأوضاع التعليم من مصريين وأجانب. ولهذا تحرك القبانى ونجح فى مسعاه حيث أقنع المسئولين بضرورة انشاء معهد عال يتخصص فى إعداد مهنى جيد لكافة المعلمين بالمدارس المصرية. وأقيم بالفعل أول معهد من هذا النوع فى سنة ١٩٢٩م بالقاهرة وبه شعبتان: شعبة لمعلمى المدارس الابتدائية، وأخرى لمعلمى المدارس الثانوية. وحظى المعهد بشهرة علمية وتربوية جعلته منه مدرسة البراجماتية نظرية وتطبيقا، ومركزا للبحث التربوى والتدريب المهنى [١٩] وأنشىء على غراره معهد التربية للبنات عام ١٩٣٣م. كما خضع المعهد الأم لتطورات تنظيمية أثمرت فى نهاية الأمر عن إلغاء شعبة معلمى الابتدائى، وإنشاء قسم للدراسات العليا فى سنة ١٩٤١م، وخول حق منح درجات علمية: دبلوم خاصة ـ ماجستير ـ دكتوراه.

وفى عام ١٩٤٥م ضم المعهد فرعا بالإسكندرية لم يلبث طويلا حتى استقل كمعهد

تربـوى تابع لوزارة المعـارف عام ١٩٤٧م، بينما ألحق المعهد الأم بجامعـة عين شمس سنة ١٩٥٠، ثم تحول إلى كليـة تربية عام ١٩٥٦م. وكـانت نواة أساسيـة أنشىء على غرارها كليـات تربوية تكـاثرت عددا ونوعـا (نحو ثلاثين كلية)، وتقـوم كلها بمهام إعداد المعلمين لمراحل التعليم العام فى كل التخصصات العلمية والفنية والرياضية [٢٠]

٢ـ فصول تجريبية ومدارس نموذجية

كما فعـل جون ديـوى وأنشـأ مدرسـة تطبيقية ملحقـة بجـامعة شيكـاغـو (ينايـر ١٨٩٦م) لتكون معمـلا للبحث التربوى والتجريـب المنهجى (خارج دائرة التـدريب المهنى للمعلمين)، فإن القبانى يفعل نفـس الشىء فى مصر، وبدأ بفتح فصول تجريبية (١٩٣٢م) ملحقـة بمعهد التربيـة للمعلمين، يطبـق فيها طلبتـه مـا تعلمـوه نظريـا، ويجرون تجارب رائدة تستهدف تحديث تـربية خاصة لم تكـن معروفة من قبـل، حيث كان يلتحـق بهذه الفصول بطيئو التعلـم والمعوقون عقليا أو جسـديا. كما هيأ القبـانى للتجريـب مجالا أوسع وعلى عينـات طبيعية (أو عاديـة) فى مدرستين ثـانويتين (٣٧، ١٩٣٨م) حين عين فيهما ـ واحدة بعد الأخرى ـ مديرا مسئولا [٢١] ولكن تركه الإدارة وانتقـاله إلى المعهـد وكيلا بـه، أدى إلى إهمال هذا التجـريـب الذى فقـد راعيه وكثـر مهاجموه، مما ألجأ القبانـى إلى البحث عن بديل تجريبى ثـابت ومضمون، واستطاع أن ينشىء فى عام ١٩٣٩م بحى القبة فى القاهرة مدرسـة النقراشى النموذجية الابتدائية ثم ضم إليها عام ١٩٤٢م مدرسة النقراشى النموذجية الثانوية، وجعل القوصى وهو من كبار معاونيه مشرفا عليهما. ونظرا لنجاح التجربـة عمل القبانى على توسيعها، فأنشأ مدرسة الأورمان النمـوذجية بقسميها الابتدائى والثانوي بالجيـزة ونصب واحدا آخر من معانويه: محمد فؤاد جلال مشرفا عليها. ولشهرة هذه المدارس فى نظمها وبرامجها وأساليب تعليمها، فقد جـذبت نحوها أحسن العناصر الطلابية مـن أبناء البرجوازية المستنيرة، والذيـن فضلوهـا على المدارس الخاصة والحكـومية والأجنبيـة، كما تخيرت للعمل بها أحسـن الخريجين من طلبـة المعهد. وكان كـاتب هـذه السطور واحـدا ممن درسوا بالنقراشى النموذجية فى عامى ٥٧ و ١٩٥٨م.

وكانت إبداعات النموذجيات موضوع تأثير وتقليد فى كثير من المدارس المصرية، ومحل تقـديـر وإعجـاب المسئـولين والمربين والإعـلاميين. ولعـل خير مـا قـدمتـه

النموذجيات فى منظومة مستحدثاتها التربوية صيغة «مجلس الآباء» الذى ظهر لأول مرة يضم ممثلين لآباء التلاميذ ومعلميهم لدراسة شئون المجتمع المدرسى وتوثيق العلاقة بين المدرسة والمنزل، مما حمل السلطة الوزارية على إصدار قرارها بتعميم هذه الصيغة فى كل المدارس المصرية.[٢٢]

وهكذا أصبحت النموذجيات قوة تحديث تربوى تغير جذريا من أشكال ومضامين التعليم المدرسى التقليدى، وأصبح القبانى رمزا كبيرا فى عصر ارتبط به وعرف بحق أنه عصر «التربية التقدمية».

٣ـ إنشاء روابط تربوية

كانت فى مصر جمعيات وروابط خاصة بفئات المعلمين (بحسب مراحل التعليم التى كانوا يعملون بها وبحسب التخصصات العلمية التى كانوا يقومون بتدريسها). وكانت فى أغلبها ذات اتجاه نقابى يعمل لأغراض اجتماعية واقتصادية، فاتجه بها القبانى نحو التوحيد ولغرض تربوى فنى غايته النهوض بالتربية فى إطار المفاهيم والتنظيمات الحديثة.

وكانت أول رابطة تنشأ لتحقيق هذه الغاية هى رابطة التربية الحديثة فى عام ١٩٣٦م وقد جعلها القبانى فرعا للمركز الرئيسى فى لندن، وضمت عند تأسيسها نخبة من المربين والمربيات بلغ عددهم ثمانين عضوا. وأصبحت هذه الرابطة رائدة للحركة البراجماتية التى عرفها الشرق العربى لأول مرة.

وفى عام ١٩٤٣م أنشأ القبانى رابطة خريجى معاهد التربية بعد أن تكاثر هؤلاء الخريجون الذين أعدوا على أسس حديثة وأصبح لهم وجود مهنى بارز فى المجتمع يرفع شعار «التربية التقدمية»، وانتخب القبانى أول رئيس لها[٢٣].

وعلى غرار هذه الرابطة أسس القبانى الجمعية المصرية للدراسات النفسية لتعنى بصفة خاصة بترقية الجوانب السيكولوجية نظرية وتطبيقا فى معاهد التربية والمدارس المصرية.

٤ـ إصدار صحيفة التربية الحديثة

كانت فى مصر صحف مدرسية أقدمها «روضة المدارس المصرية» التى أنشأها

الطهطاوى وصدر أول عدد منها فى ١٥ محرم ١٢٨٧هـ أى منذ حوالى قرن وربع القرن. كما أحصيت أعداد الصحف المدرسية فى عام ١٩٤٨ فكانت ٣٥ صحيفة[٢٤]، لكنها جميعا تختص بشئون التعليم وأحوال المدارس، ومقالاتها خفيفة ذات طابع إخبارى (إعلامى). ولم يكن هذا الاتجاه ليرضى القبانى الذى وقف وراء إصدار صحيفة التربية الحديثة لتكون مجلة البحوث والمحاضرات الرصينة التى يعدها أعضاء الرابطة وظهر أول عدد منها فى يونيو ١٩٤٨م بواقع ثلاثة أعداد كل عام ولكن سرعان ماعدلت الرابطة نظام صدورها فى العام التالى ١٩٤٩ فأصبحت تظهر أربع مرات فى السنة، واحتفظت بذلك النظام حتى اليوم. واستكتبت وبالذات فى سنواتها الأولى كبار المربين من مصريين وعرب وأجانب، وقدمت على نطاق واسع فى مصر والعالم العربى للمربين وجماهير المعلمين الفكر التربوى الحديث.

٥ـ إنشاء هيئة البحوث الفنية بوزارة المعارف

للقضاء على سياسة التعليم المرتجلة التى كانت تمشى بها السلطات المسئولة مع تعاقب الحكومات الحزبية وقراراتها المتعارضة، عمل القبانى على إنشاء هيئة علمية دائمة تكون مسئولة عما يتعلق بالسياسات والقوانين والمشروعات والمناهج والطرق التعليمية والتى تدرس بمنهجية موضوعية بعيدا عن مناورات الساسة وتقلبات الحكومة. واختير القبانى أول مستشار يرأسها (١٩٤٠) وكان يعاونه فنى كبير وشباب مؤهلون. وقد صدرت عنها بحوث ودراسات قيمة أسهمت فى تحسين وتطوير نظم التعليم. وقد ألغيت وظيفة المستشار الفنى فى عام ١٩٤٦ ورجعت اختصاصات هذه الهيئة إلى أحد وكلاء الوزارة[٢٥].

٦ـ استقدام أساتذة زائرين من كبار التربويين

حرص القبانى على استقدام عدد من أصحاب الشهرة العالمية فى مجال التربية التقدمية واستهدف من وراء ذلك عدة أمور، أولها إلقاء محاضرات فى معهد التربية للمعلمين خاصة بالاتجاهات الحديثة فى التربية، وثانيها لتفقد أحوال المعهد واقتراح ما يكفل تطويره، وثالثها لإفادة التربويين المصريين من خبرات وتجارب الدول المتقدمة التى وفدوا منها، ورابعها الكتابة فى صحيفة التربية.

وكان منهم الامريكى Boyd H. Bode الأستاذ التربوى بجامعة أوهايو.

والبروفيسور Harold Rugg الأستاذ بجامعة كولومبيا ورائد الحركة الفلسفية التربوية المعروفة بإعادة البنائية Reconstutionnalism والتى أضافت بعدا اجتماعيا إلى البراجماتية يجعل من المدرسة قوة فاعلة ومؤثرة فى إعادة بناء المجتمع على أسس وقيم جديدة تصلح لعالم مابعد الحرب العالمية الثانية، والبروفيسور William Gray صاحب الدراسات الشهيرة والرائدة فى عمليات القراءة. كما كان منهم أساتذة إنجليز كالبروفيسور Fred clark ، والبروفيسور Berny والبروفيسور Depson . ومن الفرنسيين الأب بولانجيه Le Pere Boulanger (٢٦)

٧ـ تأليف وترجمة كتب حديثة فى العلوم والمواد الدراسية

نشطت رابطة التربية الحديثة ورابطة خريجى معهد التربية والجمعية المصرية للدراسات النفسية وكلها تحت رئاسة وإشراف القبانى فى مجال الترجمة والتأليف والنشر لخدمة تحديث الفكر التربوى وتطبيقاته العملية. وقد ألفت فى عام ١٩٤٨م وحده تسعة كتب تربوية تناولت: تربية الأطفال ـ طرق التدريس ـ إعداد المعلمين ـ رسالة المعلم وأدواره الوظيفية ـ مكافحة الأمية ـ نظريات التربية ـ تربية الآباء (أو التوعية التربوية لإسر).

كما اشترك القبانى مع البروفيسور جاكسون وآخرين فى تأليف كتب دراسة لطلاب معهد التربية. وكتب بقلمه مقدمات لعديد من الكتب، وفى عام ١٩٤٨ ترجمت أربعة كتب، هى:

- Ground Work of Education Theory.
- Psychologie de L'edcation.
- Test Book in the History of Education.
- Ground of Freedom in Education. (٢٧)

٨ـ تكوين كوادر تربوية واعية بمسئولياتها فى إصلاح التعليم

وهذا المسلك جعل لسياسة القبانى نموا مطردا فى مشروعات الإصلاح والتى حملتها فى حياته وبعد موته أجيال متعاقبة من كبار التربويين الذين رعاهم وسعى لإيفادهم فى بعثات دراسية بالولايات المتحدة الأمريكية وبالمملكة المتحدة، وعادوا إلى

مصر يحملون أرفع الدرجات العلمية، وعينهم فى معاهد التربية، ووكل إليهم مهمات وظيفية فى التدريس والبحث العلمى وهندسة النظم التعليمية فى مصر والعالم العربى. ولسنا بحاجة إلى ذكر أسمائهم فهم يعدون بالعشرات، وكلهم أسماء لامعة وأعلام بارزون وقد رحل منهم من دنيانا الكثيرون.

٩ـ تنظيم ندوات ومؤتمرات وطنية ودولية

آمن القبانى بأهمية تنظيم ندوات ومؤتمرات محلية وعربية ودولية لدراسة أهم القضايا التى ينتظمها مشروعه الإصلاحى الكبير فى التعليم. وقد حرص على أن يدعو إليها نخبا من كبار التربويين يكون لإجماعهم صوت مؤثر عند أصحاب القرار فى أعلى مستويات السلطة التعليمية. وأن يكون لمناقشاتهم ودراساتهم أثر تنويرى يفيد فى منهجية التطوير وفاعلية التنظيم والتدريس.

وليس بالضرورة أن يكون القبانى هو المسئول الأول أو الوحيد فى مجال إعداد هذه الندوات والمؤتمرات، وإنما كان له بالفعل فضل المشاركة الإيجابية فى معظمها فكرا وعملا، وكان صوته الأقوى والمؤثر فى اتخاذ قراراتها وتوصياتها، ومنها:ـ

— مؤتمر عام للتعليم الأولى، عقد فى ١٩٢٥م وكان القبانى أول من دعا فيه إلى سياسة توحيد هذا التعليم.

— مؤتمر تدريس العلوم (١٩٤٢م) مستهدفا تحديث المناهج والكتب وأساليب تدريس العلوم.

— مؤتمر المدرسة النموذجية (صيف ١٩٤٣م) بالإسكندرية للتعريف بالنموذجيات وأساليب تعليمها وفنية النهوض بها.

— مؤتمر وطنى خاص بتطبيق أساليب التربية الحديثة (١٩٤٥م).

— مؤتمر عربى دولى للتعليم الإلزامي (١٩٥٥)م.

— مؤتمران خاصان بالتفتيش (أو التوجيه التربوى): فلسفة ووظائف وأساليب، عقد أولهما فى فبراير ١٩٥٦، والثانى فى يناير ١٩٥٨، وخرج عنهما كتابان:

١ـ تفتيش أم توجيه.

٢ـ دراسات فى جهاز التفتيش الفنى.

كما نظم القبانى فى عام ١٩٤٩م برنامجا لجماهير المعلمين ألقيت به ثلاث وثلاثون محاضرة فى مختلف الاتجاهات التربوية النظرية والتطبيقية [٢٨] .

١٠ ـ إصدار تشريعات ولوائح تنظمية

عمل القبانى بصفته خبيرا ومستشارا تربويا، ورئيسا لمنظمات مهنية، ومسئولا عن التعليم فى الوزارة، على إصدار تشريعات وقوانين ولوائح تنظيمية تحمى مشروعاته الإصلاحية وتسمح لها بالثبات واطراد التنفيذ، ومن أهم ما صدر منها فى هذا المجال:

— إنشاء مدارس ريفية نموذجية (١٩٤١م) ومدارس معلمين ريفية (١٩٤٨) ووضعها تحت إشراف وزارة المعارف.

— إلغاء الشهادة الابتدائية (١٩٤١م) حيث كانت تدفع بكثير من الحاصلين عليها من أبناء الطبقة العاملة إلى حياة العمل والانقطاع عن الدراسة دون مواصلة التعلم.

— تحويل المدارس الإلزامية الهابطة والمسدودة bloquees إلى مدارس أولية لها فاعلية تربوية وتغيير أنظمتها الدراسية (قانون ١٩٤٩).

— إقرار مجانية التعليم الابتدائى (١٩٤٤).

— إعادة تنظيم سلم التعليم العام المكون من مرحلتين ابتدائية وثانوية (والذى أعد على النظام الفرنسى منذ ١٨٣٦) ليكون نظاما من ثلاث مراحل: ابتدائية وإعدادية وثانوية (قانون ١٩٥٤م).

— تنظيم التعليم الثانوى بما يؤدى إلى تنويعه ورفع مستواه (قانون ١٩٤٩م) وقانون (١٩٥٣م).

— تضمين مناهج المدارس الأجنبية اللغة العربية والثقافة القومية وجعلها من المواد الأساسية فى امتحاناتها (قرار وزارى رقم ١٠٠٢٦ فى ٢٠/ ٣/ ١٩٥١م)[٢٩] .

١١ ـ منهجية الإصلاح

لم يكن من السهل أن ينجح القبانى فى مجالات مأسسة الإصلاح على النحو الذى أشرنا إليه من قبل لو لم تكن له منهجية استراتيجية خطط لها بوعى وإحكام واستطاع أن يتغلب بها على الصعوبات التى واجهته طوال حياته المهنية، ومن خصائص هذه

المنهجية: لغة علمية ـ تدرج محسوب ـ وسطية اعتدالية ـ تجريب موضوعى.

١ ـ لغة علمية

لقد اتخذ القبانى لغة إصلاح علمية تختلف تماما عن لغة السياسيين الخطابية التى تغلفها الديماجوجية، والمزيدات المجانية، والوعود الهلامية. إنه تكلم عن الخبرة، والميول، وتكامل الشخصية، وتنوع الأنشطة التربوية، وتنمية الفكر النقدى، وإيجابية المتعلم، وتأهيل المعلمين، وغير ذلك من مصطلحات فنية تحتاج إلى تفسيرات علمية أو موضوعية، وليس إلى تأويلات سياسية. وحتى فى القضايا التى تمس فى الصميم جوهر السياسة التعليمية، فإن القبانى تناولها من مدخل حضارى وبروح إنسانية تستعطف الآخرين ولا تثيرهم. فعندما تكلم مثلا عن تعميم التعليم الأولى وتوحيده وإطالة أجل الإلزام فيه فإنه استخدم كلمات العدالة الاجتماعية فى مجتمع ينادى بالديمقراطية، والتقدم فى مجتمع مازال متخلفا فى كل نواحى حياته، وتثقيف شعب أمى سبق له أن أشع على الدنيا قديما بنور المعرفة. إن معارضيه للأسف كانوا فى معظمهم من طبقة التربويين والإداريين بوزارة المعارف الذين نفسوا عليه تفوقه الفكرى ونشاطه الإصلاحى.

ولنزاهة شخصيته وبعده عن المطامح الحزبية والمناورات السياسية فقد وثقت فيه قيادات الثورة العسكرية (١٩٥٢) وأسندت إليه أول وزارة للتعليم فى عهدها الجديد، وحول أهدافها من شعارات إلى إجراءات لها صياغة تقنية ولغة علمية.

٢ ـ تدرج محسوب

إضافة إلى عقلانيته كانت واقعيته التى استطاع بها القبانى أن يواجه سوء الأحوال التعليمية ومن ثم فلم يشأ أن يقفز على الواقع فى مجازفات تحمل كثيرا من مخاطر الإحباط أو الرفض أو التجديد الذى يجانب التجويد. وكانت له فى ذلك استراتيجية خاصة ثلاثية المبادىء:

أ ـ الإصلاح فى تصور كلى شامل

لم يقدم القبانى خططه الإصلاحية كأعمال جزئية مبعثرة ومتباعدة لكل منها وجهته الخاصة وإنما بدأ مشروعه الإصلاحى الكبير فى تطوير نظام التعليم المصرى فى إطار

براجماتى واسع متكامل فى أفكاره وسبل تطبيقها. ومن ثم كانت له رؤية شمولية تتماسك عناصرها برباط منطقى وتتجسد فى بنية عضوية وظيفية: أهدافا وبنى وبرامج وطرائق وتأهيل العاملين فى الإدارة والتخطيط والتوجيه والتعليم.

ومن هنا كان اختلاف القبانى عن أكثر الذين سبقوه أو عاصروه ممن ركزوا على بعض الجوانب دون غيرها فى نظام التعليم.

ب ـ الإصلاح من أحد المداخل

إن الذى يطلع على الإنتاج الفكرى للقبانى يجد أن أدبه التربوى اتسع لمعالجة كافة القضايا الأساسية فى التعليم، لكنه واقعيا اتخذ من قضية «إعداد المعلمين» المدخل الأولى لمشروعه الإصلاحى الكبير.. ولعله وجد من الصعب ماديا وفنيا أن يصلح كل شىء معا وفى آن واحد، فاتخذ من تأهيل المعلم مفتاحا يحل به كثيرا من مشاكل التعليم باعتبار أن المعلم هو حجر الزاوية فى الإصلاح التعليمى، وبقدر ما يكون المعلم يكون التعليم. وفى معهد التربية وضعت نظم ومناهج جديدة أسهمت فى تخريج أعداد مؤهلة بكفاية حملت على عاتقها مهمة التسريع بمشروع الإصلاح وحسن تنفيذه على نحو براجماتى أصيل.

جـ ـ التحرك بالإصلاح على مراحل

كل مرحلة تضع قاعدة عريضة لعملية إصلاح تالية أكبر وأشمل، مما يجعل الإصلاح سلسلة متصلة الحلقات فى مشروع قومى دائم.

معهد التربية خضع لتطورات مرحلية، وكذلك توحيد التعليم الأولى وتطويره خضع لنفس المنهجية، فقد أقر القبانى فى أول حياته المهنية سياسة تحويل المكاتب العامة (كتاتيب أو مدارس قرآنية شعبية) إلى مدارس نظامية بها مناهج أولية بثقافة عصرية، ومعلمون نالوا قسطا مقبولا من المعرفة والخبرة، وكانت الظروف وقتها لا تسمح بأكثر من ذلك. ثم عمل على ترقية المدارس الإلزامية فدعا إلى زيادة سنواتها الدراسية من أربع إلى ست، وتنويع المناهج لتكون شاملة الجوانب النظرية والعملية، وإطالة اليوم الدراسى بدلا من نصف اليوم، وتغذية التلاميذ، وتوفير العناية الصحية لهم. ثم دخل مرحلة ثالثة نادى فيها بتحويل المدارس الإلزامية والأولية والتى خصصت لأبناء الفلاحين والعمال إلى مدارس أولية راقية ترتفع إلى مستوى المدارس

الابتدائية الموصلة إلى مراحل التعليم الثانوى فالعالى، ومن ثم تغيرت المناهج وفتحت مسارات للتحويل والتقدم لامتحان الشهادة الابتدائية. وأخيرا وقبل قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ نجح القبانى فى دعوته إلى دمج كل أنواع مدارس المرحلة الأولى فى مدرسة ابتدائية واحدة لا تعرف الفوارق الطبقية والبيئية والطائفية [٣٠].

٣ـ وسطية اعتدالية

عرف القبانى كيف يمشى بمشروعاته الإصلاحية وسط المتناقضات بسياسة تراعى إيجابيات الأطراف المتصارعة وتحقق فى الوقت ذاته نزعة توفيقية ترضى الجميع وتتوافق مع الإمكانيات والظروف المحيطة ودون تجاوز لمنهجية الإصلاح فى وضعها البراجماتى العقلانى.

ففى مجال التوجه الإصلاحى يمزج القبانى بين الأصالة والمعاصرة، بين القيم الدينية والمدنية، وبينما يدعو إلى الاعتزاز بالقومية العربية لا يتجاهل أهمية التفاعل مع حضارات العالم وثقافات الشعوب، ومن ثم فتربيته كما يريدها: «لاهى تقليدية قديمة، ولاهى غريبة مستعارة، بل إنها عربية أصيلة تربط الماضى بالحاضر، وتهيىء للمستقبل» [٣١].

وفى إطار هذه العقيدة يرى القبانى أن المدرسة يجب أن تنهض بدور مزدوج ذى طرفين يبدوان متناقضين، فتكون «عامل محافظة وتجديد فى آن واحد، حتى تساعد الفرد على تحصيل تراث الماضى الثقافى، وتعده فى الوقت نفسه لتنميته والإضافة إليه، وبذلك تكسبه القدرة على تعديل النظم الاجتماعية» [٣٢].

وفى مجال الصراع بين أنصار الكم ودعاة الكيف فى التعليم، اتخذ القبانى خطا وسطا يجمع بينهما. كان هناك ممثلو سلطة الاحتلال البريطانى، وسلطة القصر الملكى، وسلطة كبار البرجوازيين وبعض المثقفين الذين وقفوا لأغراض مختلفة ظاهرة وباطنة فى جانب الكيف بدعوى أن مصر بحاجة عاجلة إلى كوادر مؤهلة للحكم والإدارة يمكن أن توفرها صفوة المتعلمين بكيفية جيدة، وجاء وقت انتصرت فيه هذه الدعوة مما وجه الميزانية إلى مدارس برجوازية محدودة الانتشار (ابتدائية وثانوية وعليا) وكان ذلك على حساب التعليم الأولى لأبناء الشعب [٣٣].

وفى الطرف المقابل وقفت أكثر الأحزاب والمثقفين من أصحاب النزعة الليبرالية

المفتحة التى تقدر أهمية التعليم فى التنمية والتقدم وترفع شعارات التربية للجميع «كالخبز والماء» أو «كالماء والهواء» [٣٤] ومن ثم فقد دعوا إلى ضرورة تعميم التعليم الأولى وجعله إلزاميا ومجانيا مع التوسع فى نشر التعليم الثانوى وفتح الجامعات للراغبين فى التعليم.

وفى هذا الجانب وقف القبانى بتحفظ مقدرا الآثار السيئة التى تفرزها سياسة الكم فى التعليم.

لقد برر أولا لنزعة الكم منطقها الإنسانى فى تعليم شعب أمى لايزال ٨٠٪ من أفراده فى عام ١٩٤٥ أميين مهملين ومحرومين من فرص التعليم [٣٥].

ويوضح إيجابيات تعليم أبناء الشعب فى بلد يتحرر ويتقدم علميا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ويقول «فى بلد هذه حاله جدير بأن يوجه جهوده التعليمية إلى انتشال الشعب من وهدة الجهل الذى يفسد عليه كل ناحية من نواحى حياته وأن يعمل على تعميم تعليم أولى صالح قبل أن يفكر فى تعميم التعليم الثانوى [٣٦] ولكنه مع ذلك لايريد الكم بأى ثمن وإلا يفقد التعليم أهميته وتضيع عوائده. ولهذا وضع سياسته التى تأخذ بالكم فى حدود معقولة بحيث يكون هناك تحسين فعلى يمكن إحداثه مع التوسع المتدرج فى التعليم.

وهكذا سار القبانى فى خطين متوازيين لا يسبق أحدهما الآخر: توسع كمى لدرجة أنه فى عام ١٩٥٤ وفى عهد وزارته كانت تبنى مدرستان ابتدائيتان فى كل ثلاثة أيام، وخصص للتعليم الابتدائى نصف ميزانية الوزارة مطالبا برفع هذه النسبة إلى ثلثى ميزانية التعليم لتغطية نفقات الزيادة الكمية والتحسين الكيفى الذى طال كل عناصر التعليم: تجهيز المدارس، إعداد معلمين مؤهلين، وضع برامج وتأليف كتب جديدة مناسبة... الخ. [٣٧]

فى مرحلة التعليم الابتدائى لم يفصل القبانى الكم عن الكيف، فهو تعليم له أولويته وأهميته؛ نادى بالتعميم والإلزام وإطالة أجله وتوحيده بما يقضى على واقع الازدواجية السيئة التى تقسم بين تعليم أولى شعبى مفلس وهزيل وتعليم برجوازى جيد خصص لأبناء الصفوة المميزة فى المجتمع ويقول: «إن التفرقة بين التعليم الأولى والتعليم الابتدائى قائم على تقسيم الأمة إلى طبقتين منفصلتين؛ طبقة تختص بالحكم

والجاه والرفعة، وطبقة قضى عليها بالخضوع والكد والضعة. ليس هناك أى اعتبار يمنع توحيد المرحلة الأولى منه. إن حجر الزاوية فى سياستنا التعليمية ينبغى أن يكون تعميم التعليم الابتدائى (وجعله) مرحلة من مراحل التعليم العام (مع توفير متطلباته المالية) فالتعليم كلما ازداد رخصا ازداد رداءة [٣٨] ويطلق على غير عادته صيحة مستفزة لكنها صائبة، فيقول: «لا يمكن أن يقوم نظام ديمقراطى للتعليم فى مجتمع تسوده روح الإقطاع» [٣٩].

وإذا كان ذلك موقفه فيما يختص بالتعليم الابتدائى، فإنه مال إلى جانب الكيف فى مرحلة التعليم الثانوى الأكاديمى والذى يجب أن يكون لأصحاب القدرة العقلية بصرف النظر عن الوضع الطبقى للمتعلمين ولم يكن يعلم كما أثبتت الدراسات العلمية فيما بعد أن أصحاب القدرة العقلية لن يخرج معظمهم من بيئات شعبية محرومة أو معوقة فى حياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

لقد كان له فضل إصدار قانون ١٩٤٩ عندما كان وكيلا لوزارة المعارف وأوقف بمقتضاه سياسة القبول الآلى بالتعليم الثانوى حيث كثرت الشكاوى ضد انهيار مستواه التعليمى، وشدد على ضرورة الاختيار للعناصر الصالحة قائلا: «إن التعليم الثانوى والعالى هما الوسيلة لإعداد الرجال والنساء الذين سيتبوأون مراكز القيادة فى حياة الأمة فى الجيل القادم، وكل هبوط فى مستواهما هو إخفاق لمستوى الكفاية ومستوى الأخلاق فى حياتنا العامة فى المستقبل. فإذا جاز أن نتساهل بعض التساهل ـ لاكله ـ فى مستوى التعليم الأولى بغية الإسراع فى تعميمه، فليس هذا بجائز فى التعليم الثانوى والعالى بحال من الأحوال. والمقرر عند رجال التربية والتعليم فى جميع البلاد المتحضرة أن الكيف يجب أن يأتى قبل الكم فى هذين التعليمين، فالأمة التى تضحى بالكيف فى سبيل الكم فيها، أمة تنتحر [٤٠].

ولهذا عندما جاء وزارة المعارف ألغى على الفور قانون سلفه طه حسين (١٩٥١) والذى فتح الباب على مصراعيه للقبول الآلى بالتعليم الثانوى، وأصدر بدلا منه قانون (١٩٥٣) الذى يعزز قانون (١٩٤٩) الذى وضعه عندما كان وكيلا للوزارة مشددا على سياسة التحسين الكيفى لهذا التعليم.

أما التعليم الخاص الذى تقبل على مدارسه نوعيات متميزة من أبناء البرجوازية

المصرية والجاليات الأجنبية فقد تركه لأصحابه مادامت الدولة لا تنفق عليه من ميزانيتها العامة.

٤. تجريب علمى

كان القبانى أول رائد عربى فى حركة التجريب العلمى فى مجاليه التربوى والسيكولوجى. ففى التربية وبرغم إيمانه بالفلسفة البراجماتية وأساليبها العملية على النحو الذى خرجت به من بيئتها الأصلية الأمريكية، إلا أنه أخضع كل عناصرها فى مصر للتجريب العلمى مستهدفا بذلك تكييف التعليم بما يتمشى مع الثقافة الأهلية والإمكانات الواقعية، وطمأنة المتشككين من مثقفين وتربويين وسياسيين عندما يرون بأعينهم سلامة التجريب ونجاح التجديد. كما استهدف أيضا تزويد العاملين معه بخبرات عملية ميدانية تعينهم على التوسع والمضى قدما فى مشروعات الإصلاح التعليمى.

وقد أشرنا من قبل إلى وظيفة التجريب فى تصميم المناهج وتحديث أساليب التعليم التى اضطلعت بها الفصول التجريبية والمدارس النموذجية التى أنشأها القبانى لهذا الغرض.

بالإضافة إلى ذلك فإن المنهج الذى اتبعه القبانى فى مجال التعليم الريفى يقدم مثالا آخر على إيمانه بأهمية التجريب. لقد جند رابطة التربية الحديثة وكلفها القيام بدراسات جادة تحدد أهداف هذا التعليم، وشكل أبنيته، ونوعية برامجه، وكفاءات معلميه، وخرج كتاب عن الرابطة فى عام ١٩٤٠ يجمع نتائج البحوث فى هذا الموضوع [٤١].

بعد ذلك أقيمت أول تجربة عملية لإنشاء مدرسة أولية ريفية سنة ١٩٤١ فى قرية المنايل، وصممت مناهج الدراسة بها على نظام يجعل نواة العمل فيها الحقل وما يقوم به التلاميذ من زراعة إنتاجية أو حرف صناعية، ومن ثم ألحقت بها مزرعة صغيرة وحظيرة دواجن، كما أنشئت ورش (أو مشاغل) للصناعات المحلية والريفية، وجند لها معلمون وفنيون زودوا بمعارف وخبرات تؤهلهم لهذا النوع من التعليم الذى يشبع حاجات الصغار والكباء على السواء فى قرية يراد لها أن تنمو فى كل النواحى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والصحية.

ولما أثبتت المدرسة نجاحها واقتنع بذلك المسئولون، تقرر نشر هذه المدرسة فى

عدد من القرى المصرية، فأنشئت ٣٥ مدرسة عام ٤٣/ ١٩٤٤م، وكذلك ٤٣ مدرسة أخرى فى العام التالى ٤٤/ ١٩٤٥م، كلها على غرار مدرسة المنايل الناجحة.

ولما كانت الحاجة ماسة إلى هيئة معلمين مؤهلين، فقد تقرر إنشاء مدرسة معلمين ريفية بمنشأة القناطر عام ١٩٤٨، تلتها مدرسة مماثلة فى قرية بَـيّ العرب. وسارت الدراسة بها بطريقة المشروع والتى تركز على دراسة أحوال الريف وحاجاته. وكان من بين مشروعات الدراسة: مشروع مشاكل القرية، مسكن الفلاح وغذائه ومياه الشرب، مقاومة ديدان اللوز فى محصول القطن... الخ [٤٢].

أما فى المجال السيكلوجى؛ فقد خلق القبانى حركة تجريبية واسعة وبالذات فيما يتصل بتقنين المقاييس العقلية واختبارات التحصيل الدراسى، وكان من أقواله المأثورة: «إذا كان لعلم النفس أن ينزع نحو الصبغة العلميةالبحتة فيجب أن يدع كثيرا من مفاهيمه جانبا ويبدأ فى ملاحظة السلوك فى موقف اختبارى معين». وقد بدأ بهذا العمل فى أوائل الثلاثينيات من عمره حيث ساعد كلاباريد عام ١٩٢٩م فى دراسته لعقلية التلميذ المصرى، وكان قد عهد إليه بالإشراف على إجراء الاختبارات التى ترجمها القبانى وعدل فيها وطبقها على آلاف التلاميذ، وحلل نتائجها واستخلص أهم حقائقها، وأخرج كتاب هو الأول من نوعه فى مصر والشرق العربى بعنوان: «قياس الذكاء فى المدارس الابتدائية سنة ١٩٣٨».

كما وضع مع معاونيه اختبارات لقياس المهارة فى التفكير والحساب، والمهارات الحسابية، وإعداد بطاقات خاصة بالتدريب على إجراء العمليات الحسابية المختلفة [٤٣] وإليه يرجع الفضل فى إنشاء العيادة النفسية بجامعة عين شمس والتى أصبحت معملا تجريبيا لنظريات وأساليب التحليل النفسى والعلاج الكلينيكى، تدرب فيه باحثون مبتدئون ثم انتشروا فيما بعد أساتذة متخصصين فى مصر والعالم العربى.

البراجماتية بين غروب أمريكى وشروق عربى:

لقد شهدت البراجماتية الأمريكية منذ الأربعينيات وخلال الخمسينيات حملات هجوم ونقد ضد سلبياتها التى تراكمت بشكل أدى إلى انهيار مستويات التعليم: فلقد اتهمت بمجارة ميول المتعلمين على حساب الأهداف الحقيقية للتعليم، وركزت على أنشطة التربية الرياضية دون اهتمام بتعميق وتحصيل المعرفة العلمية، ورفعت شعار

الديمقراطية والحرية الشخصية فخلقت فوضى تعليمية جعلت من بعض المدارس الثانوية «حفرا من جهنم» على حد قول بعضهم Hell holes ونادت بأن «التربية حياة وليست إعدادا للحياة» فحبست بذلك الصغار فى إطار الطفولة دون أن تعدهم لممارسة أدارهم فى مجتمع الكبار [٤٤].

لم يستطع أنصار البراجماتية وقد أساءوا إلى مبادئها التقدمية بتجاوزاتهم وتقصيراتهم العملية، أن يصمدوا طويلا أمام هذه الحملات النقدية التى حاصرتهم فى كل مكان وبالذات بعد موت ديوى عام ١٩٥٢ فأعلنوا عن حل رابطتهم عام ١٩٥٥. وجاء الرئيس أيزنهاور ليعلن رسميا (فى عام ١٩٥٩) موت البراجماتية، وينادى بضرورة العودة إلى تعليم الأساسيات Back to basics وبخاصة فى العلوم التى ينهض بها التقدم العلمى المعاصر، ويتحقق بها النصر فى السباق نحو الفضاء، مع فرض النظام فى المدرسة، والجدية فى التحصيل، والمسئولية فى التعليم [٤٥].

وبينما غربت شمس البراجماتية فى مواطنها الأمريكية، كانت مصر تشهد عصر تألقها وانتشارها كتربية متفردة ليس لها نظير أو بديل [٤٦]، لقد كان القبانى على علم تام بإيجابيات وسلبيات البراجماتية فى المدارس الأمريكية خصوصا بعد زيارته العلمية للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٩م، وحاول بالفكر والتنظيم أن يتجنب الأخذ بأطراف الثنائيات dualisms التى تمثل من جانب التربية التقدمية ومن جانب آخر التربية المضادة أو المصححة لها. لقد استمع القبانى بفهم واقتناع لتحذيرات ديوى التى وجهها إلى أتباعه ولم يأخذوا بها باعتبار أنه طعن فى السن وتراجع فى فكره أو وهن فى عزمه واستطاع ان يوفق على الأقل فى مستوى التنظير والتخطيط بين: الحرية والنظام ـ اللعب والجد ـ الأنشطة العملية والمواد الدراسية ـ المهنة Vocationn والثقافة ـ تنمية الذاتية والمشاركة التعاونية [٤٧].

ولم تكن عند القبانى وأتباعه حساسية تصرفهم عن تقبل النقد والأخذ بالتعديل ومسايرة التغيير، مؤمنين بأن التجديد المتواصل هو من روح البراجماتية مادام يعمل فى صالح المدرسة والمجتمع. وهكذا تطعمت براجماتية القبانى بأفكار وأساليب متطورة وأثبتت نجاحا ملحوظا بالمقارنة إلى المدارس التقليدية وأساليبها الديداكتيكية وحملها القبانيون إلى خارج مصر فى أجيال متتابعة، وغيروا بها من نظم التعليم فى الدول

العربية. ومات القبانى فى ١٩٦٣ راضى النفس لأن أتباعه كانوا من حوله يؤكدون له أن ما غرسه باق ومزهر يؤتى ثمره فى كل حين.

الحـــواشى

(١) كتب الطهطاوى كثيرا عن التربية كما تصورها ومارسها اداريا ومعلما وكان كتابه المرشد الامين للبنات والبنين (١٨٧٢م) أول كتاب من نوعه فى التربية يشهده العالم العربى. وقد عكس فى نظرته الاصلاحية رؤيته التراثية التجديدية ورؤيته العصرية لنظام التعليم فى فرنسا، وقد عاش بها اربع سنوات قضاها فى التحصيل العلمى والتعرف على اسرار نهضتها.

(٢) لقد أريد لـه ـ كما يقول أحمد أمين ـ أن يهندس المبانى والاستحكامات فهندس طرق التربية والتعليم ووضع تصميماتها ووقف على تنفيذها فى دقة واحكام حتى عدّ من كبار المصلحين احمد امين زعماء الاصلاح فى العصر الحديث القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ط ـ ٣، ١٩٧١، ص ص ٨ و٢ ـ ٩ و٢

(٣) لمعرفة الفكر التربوى للشيخ محمد عبده وجهوده الاصلاحية ارجع الى السيد محمد رشيد رضا تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده (٣ اجزاء) القاهرة مطبعة المنار، ١٩٣١.

— ولمعرفة الفكرة التربوى لتلميذه «رشيد رضا» ارجع ال مجلته المنار التى كتب فى معظم اعدادها مقالات تربوية نقدية تحليلية تستهدف اصلاح التعليم.

(٤) نعيم عطية، معالم الفكر التربوى فى البلاد العربية فى المائة سنة الاخيرة، بيروت، الجمعية الامريكية ١٩٦٦، ص ص ١٢ـ١٠٧. ولقد تكاثرت الاحزاب السياسية حتى انه انشئت فى سبع سنين (١٩٠٧ـ١٩١٤م) سبعة احزاب بمعدل حزب جديد كل عام، انظر:

Jacob M. Landau Parliements and Parties in Egypt, Tel Aviv, The Israel Pubilishing Hqwse, 1953 , pp 139-173.

(٥) Musa (Salams), The Education of Salama Musa Leiden, E.J. Brill, 1961, p 27

(٦) السجل الثقافى، القاهرة، وزارة المعارف، ١٩٤٨، ص ص ٩١ـ١١٠

(٧) من هذه الصحف: المقتطف، المؤيد، الاهرام، الهلال، المنار، الكاتب.

(٨) جرجس سلامة، تاريخ التعليم الاجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين، القاهرة، المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٦٣، ص ص ١٣٦ـ٢٥٦ وجاء يوم ضمت فيه هذه المدارس من ابناء المصريين اكثر ممن كانوا بها من ابناء الاجانب المقيمين.

(٩) من هذه الكتب المترجمة:

— كتاب اميل القرن التاسع عشر لمؤلفة الفرنسى اسكيروس **Skiros** ، ترجمة عبد العزيز محمد بأمر من الشيخ محمد عبده فى مجلة المنار فى اعداد متتابعة، مع الشرح والتعليق.

— كتاب التربية لكانت **Kant** ترجمه عن الانجليزية الشيخ طنطاوى جوهرى.

— (كتاب التربية لهربرت سبنسر **Spencer** وتوجد له ترجمتان احداهما للشيخ محمد عبده والثانية لمحمد السباعي.

— كتاب داروين فى فلسفة النشوء والارتقاء، ترجمة وعلق عليه شبلى شميل.

(١٠) من هؤلاء المفكرين غير الذين سبقت الاشارة اليهم: شبلى شميل احمد لطفى السيد، سلامة موسى، حافظ عفيفى، طه حسين، ولكل واحد منهم كتابات تربوية تعبر عن وجهات نظر فلسفية مختلفة.

(١١) ممن اشتغلوا بالتدريس او اشرفوا على جمعيات معنية بالتربية الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا من خلال جمعية العروة الوثقى والجمعية الخيرية الاسلامية.

(١٢) كان القبانى فى ذلك يشبه جون ديوى رائد البراجماتية الامريكية والذى كان رئيس لثلاثة اقسام علمية بجامعة شيكاغو عام ١٨٩٤، وهى الفلسفة ـ البيداجوجيا ـ السيكلوجيا . انظر:

S. Alexander Rippe, Education in a Free society, An American History, Longman/ New York and London, 4 th ed., 1980 , p 205.

(١٣) اول من اكتشف عن نبوغ القبانى، زعيم الامة ووزير المعارف الاسبق سعد زغلول عند زيارته لمدارس قرى

اسيوط فى جنوب مصر عام ١٩٠٨. وتقديرا لنبوغ الطفل الفقير اسماعيل القبانى امر الوزير بالحاقه بالمدارس الابتدائية (التى كانت مخصصة لابناء الصفوة) على ان يكون تعليمه فى جميع المراحل بالمجان. وتدخل زعيم الامة مرة اخرى لصالح القبانى عندما رفضت ادارة مدرسة المعلمين العليا قبوله بالمدرسة لصغر سنه مع تفوقه فى امتحان شهادة البكالوريا ويدخل المدرسة ويتخرج فيها متفوقا كعادته ويعمل بالتعليم الثانوى كاصغر معلم بين زملائه. انظر:

— سعيد اسماعيل على، «اسماعيل القبانى رائد فى التربية» فى دراسات فى التربية والفلسفة القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٢، ص ص ٣١٥ـ٣١٦

(١٤) تدرج القبانى فى وظائف تعليمية وادارية وسياسية: معلما بالثانوى، فاستاذا بمعهد التربية للمعلمين، فمديرا بالمدارس الثانوية، فوكيلا بمعهد التربية، فمديرا له، فمستشارا فنيا بوزارة المعارف ثم وكيلا فوزيرا لها، بالاضافة الى رئاسته لعدد من الروابط التى انشأها.

(١٥) أول باحث علمى تعرض لنظرية الاهداف التربوية العالم الامريكى تيلور Tyler فى كتابين الاول بعنوان مقاييس التحصيل فى عام ١٩٣٤، والثانى بعنوان المبادىء الاساسية فى المناهج والتعليم عام ١٩٥٠، ثم اعقبه الامريكى بلوم Bloom كأول باحث اخرج تصنيفات Taxonomies مشهورة لاهداف التعليم، ظهر اولها عام ١٩٥٦. ومن ثم اصبح للاهداف نظرية وتقنيات قامت عليها ابحاث كثيرة اثرت فى تحديد وصياغة وتقويم اهداف التربية انظر:

- Pocztar (jerry), La definiTion des objectifs Pédagogiques, paris, Les Editions ESF, 1982, pp. 48-54

- de Landsheere (v.et G). Definir les objeetifs de l'éducation, paris p.u.F, 1975, p.108

— وفى مصر عام ١٩٤١ يشير احد معاونى القبانى الكبار: محمد فؤاد جلال الى «اهداف التعليم واغراضه» ويقول: هذا شىء جديد فى مصر

— محمد فؤاد جلال اتجاهات فى التربية الحديثة، القاهرة، مكتبة الاداب ومطبعتها، ط ـ ٢، (د. ت) ص ٥

(١٦) عبد الحميد فهمى مطر، التعليم والمتعطلون فى مصر الاسكندرية مطبعة محمد على الصناعية، ١٩٣٩، ص ٢٧٨

(١٧) ارجع الى كتب ودراسات القبانى:

— سياسة التعليم فى مصر القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٤، ص ص ٢٠ـ٢٤.

— سياسة التعليم الجديدة فى صحيفة التربية، القاهرة، رابطة التربية الحديثة، عدد مارس، ١٩٥٤، ص ص ١ـ٢٣

— اهداف التعليم فى البلاد العربية، محاضرات الموسم الثقافى الاول المحاضرة التاسعة الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٥٥، ص ص ١٤٣ـ١٥٦.

— دراسات فى تنظيم التعليم بمصر، القاهرة مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨، ص ص ١٠٢ـ١٤١.

— مقدمته فى يعقوب فام، دراسات فى الاخلاق، القاهرة، ١٩٣١.

(١٨) عبد الحميد فهمى مطر، مرجع سابق، ص ص. ٢٧ـ٢٧٦.

(١٩) حمد منير مرسى، فى وهيب سمعان ومحمد منير مرسى، المدخل فى التربية المقارنة، القاهرة، الانجلو المصرية، ١٩٧٣، ص ٣٨٥.

— يذكر القبانى ان اراء جون دويوى وتطبيقاتها الاجتماعية والتربوية كانت تدرس بعناية فى معهد التربية وتثير اهتماما كبيرا عند التربويين.

(٢٠) سعيد اسماعيل على، فى سعد مرسى احمد وسعيد اسماعيل على، تاريخ التربية والتعليم، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٠، ص ص ٣٠٦ـ٣٠٩.

(٢١) عمل القبانى فى عام ١٩٣٧ مديرا لمدرسة فؤاد الاول الثانوية التي سميت فيما بعد بالحسينية، ثم مديرا لمدرسة فاروق الاول الثانوية فى عام ١٩٣٨ وقد تغير اسمها الى مدرسة اسماعيل القبانى الثانوية.

(٢٢) سعيد اسماعيل على، فى تاريخ التربية والتعليم، مرجع سابق، ص ص ٣٠١ـ٣٠٢.

(٢٣) السجل الثقافى ١٩٤٩، القاهرة، وزارة المعارف العمومية، ١٩٤٩، ص ص ٢١٤ـ٢١٥ وانظر كذلك رود ريك ماثيوز ومتى عقراوى، التربية فى الشرق الاوسط العربى، (مترجم) بيروت، المطبعة العصرية، ١٩٤٩، ص ٩.

ولما تعددت معاهد التربية وتحولت بعد ذلك الى كليات تربية، غيرت الرابطة اسمها الى «رابطة خريجى معاهد وكليات التربية».

(٢٤) السجل الثقافى ١٩٤٩، مرجع سابق، ص ص ١٦٤ـ١٦٥.

(٢٥) المرجع السابق، ص ٥٧.

(٢٦) المرجع السابق، ص ص ١٦٤ـ١٦٥.

(٢٧) حمد منير مرسى، مرجع سابق، ص ٣٢٠.

(٢٨) سعيد اسماعيل على، فى تاريخ التربية والتعليم، مرجع سابق، ص ص ٢٩٨ـ٢٩٩.

(٢٩) انظر:

- Radwan A., Old and New Forces in Egyptin Education, Proposals for the Reconstruction of the Program of Egyptian Education in the light of Recent Cultural Trends, New York, Bureau of Pubication Teachers College, Columnbia Unvyersity, 1951, pp. 1072110.

(٣٠) ارجع الى كتاب القبانى، دراسات فى تنظيم التعليم، مرجع سابق، ص ص ١٠٣ـ١٠٩ والى دراسته سياسة التعليم الجديدة، مرجع سابق ص ص ٧ـ٩.

(٣١) القبانى، اهداف التربية مرجع سابق، ص ١٨.

(٣٢) سعيد اسماعيل على، دراسات، مرجع سابق، ص ص ٣٢٨ـ٣٢٩.

(٣٣) من انصار الكيف محمد عوض المدير السابق لجامعة القاهرة ووزير المعارف الاسبق، كتب يقول: «ليس من السياسة فى شىء ان نغلب الكم على الكيف .. ثمرة واحدة ناضجة خير من مائة ثمرة فجة».

من مقال له بعنوان «مصر فى ازمة» مجلة الهلال، القاهرة ١٩٤٨.

ومن قبله كان كرومر Cromer عميد الاحتلال البريطانى فى مصر يكرر دائما بان التعليم الناقص لن يؤهل مصرين اكفاء قادرين على حكم انفسهم بانفسهم.

— لكن الزعيم الليبرالى احم لطفى السيد ووزير المعارف السابق يرد على كرومر مفندا دعواه: «يقول بعضهم الجهل خير من التعليم الناقص والجهل عدم، والتعليم الناقص مربتة من مراتب الوجود العلمى، ولايكون العدم خيرا من الوجود».

— احمد لطفى السيد صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية فى مصر، من مارس ١٩٠٧ الى مارس ١٩٠٩ القاهرة المختارات السياسية ١٩٤٦، ص ١٢٠.

(٣٤) اول من اطلق شعار «التعليم (لكل الناس) كالخبز والماء» هو رفاعة الطهطاوى (ت/ ١٨٧٣م)، وهذه العبارة مأخوذة من اقوال الامام ابن حنبل (ت/ ٢٠٤ هـ) (قرن ثامن ميلادى). ثم جاء طه حسين وزير المعارف (١٩٥٠ـ١٩٥٢) فردد عبارته المشهورة «التعليم كالماء والهواء».

(٣٥) القبانى: دراسات فى تنظيم التعليم، مرجع سابق، ص ١٠٣.

(٣٦) المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٣٧) المرجع السابق ص ١٠٤.

(٣٨) القبانى، سياسة التعليم فى مصر، مرجع سابق ص ص ٤١ـ٧٢.

(٣٩) المرجع السابق ص ٧.

(٤٠) القبانى، دراسات فى تنظيم التعليم، مرجع سابق، ص ١٩٠.

(٤١) المدرسة الاولية الريفية، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشسر، ١٩٤٠.

(٤٢) انظر: ابراهيم عصمت مطاوع، اسماعيل القبانى رائد التعليم الريفى: فى صحيفة التربية، مارس ١٩٦٤، ص ١٣.

(٤٣) احمد زكى صالح القبانى وعلم النفس فى صحيفة التربية، نيابر ١٩٦٤، ص ٢٦ـ٣٤.

(٤٤) أنظر كتاب بول وود A Fourth of Anation والمترجم للعربية بعنوان «نحو فلسفة للتربية»، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٦٦، ص ١٨٣.

(٤٥) عبد السميع سيد احمد «ازمة الهوية فى الفكر التربوى فى مصر» فى دراسات تربوية، القاهرة، نوفمبر ١٩٨٥، ص ص ١٤٦ـ١٤٧.

(٤٦) يكتب احد الباحثين المصريين: «لقد ظلت نظرية جون ديوى التقدمية تسيطر على مجال التنظير التربوى فى مصر بخاصة وفى العالم العربى بعامة خلال مراحل التطور الايديولوجي.. وسدت الطريق على أي إبداع للعقل التربوى العربى «التربية المعاصرة»، القاهرة عدد مايو ١٩٨٥، ص ٦.

(٤٧) هذا الوعى التربوى المتفتح عبر عنه القبانى فى دراسة له بعنوان «فلسفة تعليمية جديدة» القاها فى محاضرتين بالجامعة الامريكية فى بيروت: مايو ١٩٥٥.

— انظر ـ دراسات فى تنظيم التعليم، مرجع سابق، ص ص ٢٤٤ ـ ٢٦٠.

— وانظر كذلك له الفصل الخامس: «اسس التربية عن طريق النشاط فى فلسفة جون ديوى» فى كتابه التربية عن طريق النشاط القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ـ ٢، ١٩٨٤، ص ص ١٦٥ـ١٦٦، ص ص ١٩٠ـ١٩١.